

## تزامن السكان

في دائرة العمران

إذا كانت سنة التنازل تقضي بازدياد المواليد وإذا كان تقدم الإنسان في المعرفة يوسع دائرة العمران وجب يحكم الطبع أن يزداد سكان المعمور عامًا بعد عام وجيلًا بعد جيل . ولكن هل تطرد هذه الزيادة ؟ وإذا اطردت فإلى أي حد يبلغ عدد السكان ؟ وما الذي يضع ذلك الحد ؟ مسألة تنوح في خاطر كل إنسان حتى الساذج ولم يفتها علماء الاجتماع البشري ولاسيما علماء الاقتصاد السياسي كادم سميث وستورتل ميل ومارشال ووكر وغيرهم . وقد بحث فيها ملثوس بحثًا مستفيضًا واستخرج قاعدة للنسبة بين السكان والأرزاق كانت موضع خلاف عند كتّاب الاقتصاد بعده . وأكثرهم تفكيرًا لها هنري جورج الاقتصادي الأميركي المشهور

﴿ قاعدة ملثوس ﴾ — وقيل التبسط في هذا الموضوع تأتي على مجمل قاعدة ملثوس التي أخذت شهرةً واهمية عند علماء الاقتصاد السياسي وهي : — يتضاعف عدد السكان مرة كل خمس وعشرين سنة ( أي أنه يزداد على نسبة هندسية في حين أن الأرزاق التي يمكن الحصول عليها إذا كانت الأحوال خادمة لسي الجنس البشري في تحصيل الرزق تزداد على نسبة حسابية . أي أنه يضاف إليها كل خمس وعشرين سنة مقدار واحد من الرزق يعادل الرزق الذي حصل في الخمس والعشرين سنة الأولى

وقد استخرج هذه القاعدة مما لاحظته من غوث المستعمرات في أميركا الشمالية ومثل عليها في الفصل الأول من كتابه عن « تمدد السكان » ( Essay on population ) بقوله : « هب أن سكان هذه الجزيرة ١١ مليون نسمة وأن الرزق الذي يحصلونه يقوم بميشتهم تمامًا . فبعد ٢٥ سنة يبلغ عددهم ٢٢ مليونًا وكذلك يتضاعف الرزق الذي يحصلونه وبعد ٢٥ سنة أخرى يبلغ عددهم ٤٤ مليون نسمة ولكن الرزق الذي يحصلونه لا يكفي أكثر من ٣٣ مليون نسمة ( يعيشوا كما كان آباؤهم يعيشون فيهم ) . وبعد ٢٥ سنة ثالثة يبلغ عددهم ٨٨ مليونًا والرزق لا يزيد عن ما يكفي ٤٤ مليونًا . وفي نهاية القرن يبلغ عدد السكان ١٧٦ مليونًا والرزق لا يزيد عن ما يكفي ٥٥ مليونًا . وأما المئة والواحد والعشرون مليونًا فيقولون بلارزق . فإذا نظرنا إلى المعمور كله بقطع النظر عن المهاجرة من بلاد إلى

أخرى وحبس سكان المعمور الف مليون نسمة فلجس الشري يتضاعف على هذه النسبة  
 ١٦٨٤٢١ ٢٥٦١٢٨٦٤٣٢١ أما الرزق فيتزايد هكذا ٤٣٢١ ٩٨٧٦٥ - في  
 نحو قرنين تسج نسبة السكان الى الرزق كسبة ٢٥٦ الى ٩ وبعد ٣ قرون تكون النسبة  
 بينها كسبة ٤٠٩٦ الى ١٣ وبعد التي ستة لا تعود النسبة صحيحة

ولا يخفى ان هذا الحساب خيالي لا حقيقي لانه يستحيل ان يزيد عدد السكان على  
 الخاصل من الرزق اذا كان هذا الخاصل منه لا يقوم بهم كلهم . ولهذا يستنتج مذكور ان  
 تضاعف السكان غير المتناهي لا بد ان يقف عند الحد الممكن باحد امرين : اما بامتناع  
 الناس عن ولادة الاولاد او بالاسباب التي تزيد عدد الرقيات . ويرد هذه الاسباب الى  
 سببين : التماسه والفساد الناجمين من قلة الرزق

﴿ رأي ستيرت مل ﴾ - اما ستيرت مل فيذهب الى ان السكان يزدادون  
 والرزق يقل عليهم معاً زاد . ولكنه لا يقول بالنسبة الهندسية في تضاعف السكان ولا  
 بالنسبة الحايية في تزايد الارزاق

﴿ مخالفة هنري جورج ﴾ - اما هنري جورج فيخالف هذه النظرية على خط مستقيم  
 ويذهب الى ان الارزاق تزايد تزايد السكان . واما ما يطراً على جانب من السكان من  
 التماسه والفساد فليس سبباً قلة الرزق بل تحول الجانب الأكبر من الرزق الى طبقة واحدة  
 من الناس وحرمان طبقة اخرى من معظم حقها منه . فلو توزعت الارزاق على الناس  
 بحسب استحقاقهم جزاء عملهم جميعاً لتضاعف السكان والارزاق معاً بقدر ما تحتمل الطبيعة  
 من التزايد من غير ان يشكو احد تماسه ارضكوا الهيئة الاجتماعية فاداً

﴿ ما يحتمل ان يكون ﴾ - لا مشاحة في احتمال تزايد السكان تزايداً مضاعفاً او  
 أكثر من مضاعف لان الزوجين يلدان ٤ اولاد او أكثر عادة اذا توفرت لها اسباب المعيشة  
 الصحية . ولا تقف المواليد الأمتى ساهت المعيشة بسبب الفقر والفساد الادبي . وهذا يحتمل  
 تضاعف السكان في كل دور من ادوار الابوة ما دامت وسائل المعيشة موفورة

﴿ حد تزايد الارزاق ﴾ - اما الرزق فهما تزايد فلا بد ان يبلغ الى حد يقف عنده  
 متى فرغت الطبيعة من الامداد به ولم يعد عمل الانسان يستطيع ان يستزيد الطبيعة رزقاً .  
 وليان ذلك نأخذ فداً من الارض ونفرض ان رجلاً وزوجته يميلان فيه عملاً كافياً  
 لتحصين قوتها وكسائهما منه . فاذا رزقاً ولدت او ولدان اضطرراً ان يعملا فيه أكثر من  
 قبل ليحصلوا على المزيد من الرزق للمزيد من العائلة . فاذا كانت العلة لا تكفيهم جميعاً اضطرراً

أن يستزيد غلة الفدان بوسائل اخرى كأن يستبد الأرض بـيرويا بالوسائل الصناعية ما لم يكن يروى منها بالوسيلة الطبيعية . فقد تزداد الغلة حتى تقوم بالاربعة . وهب ان اولدين تزوجا ورزق كل منهما ولدين او أكثر فهل في وسع هذه العائلة التي تضاعفت مرة أو مرتين ان تستزيد غلة الفدان أيضاً بوسائل اخرى . فاذا فرضنا انها رجعت وسائل اخرى كأن تنوع الزرع او تهلك الأرض او تكثر الضرع فالبنون الذين يأتون بعدها يجهزون عن استزادة غلتها طبعاً لان مصدرها الطبيعي حتماً

وهنا لا بد من احد امرين اما ان يهاجر بعض البنين الى فدان آخر اذا كان في وسعهم ان يمتلكوه ويستغلوا فيه ليريشه منه ويبقى الباقيون في الفدان الاول اوان يقتنوا بما قسم لهم جميعاً من رزق ذلك الفدان فيصيب الواحد منهم اقل مما كانت يصيب اباؤه وجددهم ويعيشون عيشة ضئيلة لثقل ثقلهم ثم يقل عددهم

ولا يجوز هنا ان نغفل عن امر جوهري وهو ان استزادة غلة الفدان بالطرق الصناعية تكلف مشقة أكثر من مشقة استغلال الغلة التي تمن بها الأرض بالطرق الطبيعية . في الطريقة الطبيعية كان استخراج الغلة مقصوراً على الحرث والبذر والحصاد . واما الطريقة الصناعية فنستلزم مع ذلك رفع المياه ونقل السماد

قوى مما تقدم ان ازدياد المستزقين من الفدان الواحد يكلف مشقة أكثر ويقل الفرد الواحد رزقاً اقل وكلا الامرين يورثان التسامة . فلا بدع ان تورث التسامة الفساد والشورور اذ تثير الطمع في قلب البعض ليطوعى البعض الآخر

﴿ قياس الكبير على الصغير ﴾ - وعلى استعمار الفدان يقاس استعمار البلدان . فاذا اخذنا مصر مثلاً على هذا القياس نجد ان سكانها يوم كانوا نصف عددهم الحالي كانوا يفي بمجوحة من العيش وان كانت دائرة الزراعة حينئذ اضيق منها الآن لضيق دائرة الري وكانت غلة الأرض اقل منها الآن وكانت الاعمال غير الزراعية قليلة . ولو استمر عددهم في الازدياد من غير ان تحسن وسائل الري وتوسع دائرة الزراعة لقلت تلك المجوحة حتماً وربما شعروا بضيق شديد او خفيف . ولكن ساعي الحكومة في تحسين الري وتوسيع دائرة الزراعة حتى صارت الأرض التي كانت مهلقة تزرع الآن والفدان يظل ضفي غلته السابقة - كل ذلك نجح المزيد من السكان من الضيق . ولعل الاحصاء الدقيق يفيدنا ان اهل مصر اصحوا اليوم في مجوحة او فر من مجوحة اسلافهم وان متوسط ثروة السكان صارت أكثر من متوسط ثروة اسلافهم . فاذا زاد السكان لم يكن يقلل الرزق على اهلهم بل ليزيدهم

لم ما دامت الارض جواردة به

وإذا كانت طبيعة الارض قد جادت بكل ما اعتدها جزاء عمل السكان فيها ولم يعد في وسعها ان تجود بالزيد فلا ينفد الرزق عند حد الطبيعة ما دامت للانسان قوة لتعمل في غير الطبيعة . فالذي لا يتسنى له ان يحصل رزقه من الزراعة فإمامة الصناعة . ولهذا ترى الآن ان اوقاف من الفلمن صاروا يشتغلون مع الرجال بعد ان كان معظم الرجال فضلاً عن الفلمن يشتغلون اوقاتهم في المجتمعات لقص الاقاصيص التي لا طائل تحتها . فترى مما تقدم انه كلما زاد عدد السكان اتسعت دائرة الاعمال المتنوعة لتحصيل الرزق

﴿ تجاوز الحد مناهج المهاجرة ﴾ - فهل يمكن ان تستمر دائرة الاعمال في الاتساع مادام السكان يزيدون ؟ اي اذا تضاعف عدد سكان مصر الحالي مرة اخرى فهل يبقى لكل حي فيها مترزق كاي حي هو فيها الآن ؟ بالطبع لا . لان المترزقات الصناعية متوقفة على المترزقات الطبيعية ( كاسيرد يانه ) وهذه محدودة . فلا بد اذاً من ان يحدث كما حدث في استعمار الفندان . فالذين لا يطيقون شطف العيش والذين يجدون في انفسهم طمعاً بميشة افضل يهاجرون الى اقرب وابسر مهجر لم - قل السودان مثلاً

وهب ان السودان بعد زمن من الازمان ازدحم بالسكان ازدحام مصر بهم فلا بد ان يضطر جانب من سكانه ان يهاجروا الى مجاهل افريقيا

على هذا النحو كان مستمر الكاب كما تكاثروا وازدهموا يزحفون مرحلة الى داخل افريقيا . وعلى هذا النحو استمروا تنال والادراج والترانسفال . وعلى هذا النحو هاجر جانب من اهل اوربا الى اميركا واستمروها مختلفاً من شخ الرزق في بلادهم . وهكذا استمر وسيلتتمر كل صقع مهجور

﴿ حد الرزق النهائي ﴾ - فاذا كان الناس كما ازدحموا في صقع اضطروا ان يهاجروا الى صقع غير معمور فيالطبع يجادروا الى الذم ان حد الرزق النهائي هو نهاية البيسة اي انه متى بلغ السكان الى حد ان يستنفدوا كل غلة الاراضي في الدنيا كلها توقفت زيادة السكان لان المزيد منهم لا يجد رزقاً الا اذا قاسم الموجودين منهم رزقهم . وفي هذه الحالة تسوء الميشة طبعاً وسوء الميشة يقلل السكان مباشرة . وهكذا يتوازن السكان والارزاق معاً هذا ما يجادروا الى الذم طبعاً وهو الحقيقة اذا قطعنا النظر عن اعشارات اخرى ذات اهمية عظمى في مصادر الارزاق وفي غلة تكاثر السكان . فهل حقيق انه اذا انتشر السكان في البيسة على التساوي وجعلوا يستغلون كل شبر فيها تنهت مصادر الارزاق ويتوقف تزايد

السكان عند ذلك الحد؟ وإلا فما هو الحد النهائي للارزاق الذي يضع الحد النهائي لزيادة السكان؟ الجواب في ما يلي

﴿ مرونة دائرة الرزق ﴾ - دائرة الرزق مرنة جداً . كلما احتشد السكان فيها اتسعت . وكلما اتسعت توترت واشتدت ضغطها على السكان . ومتى لم يعد اتساعها ممكناً كانت الحد النهائي لازدياد السكان إلا إذا كان تحت دائرة أخرى ورائها فيتجاوزها جانب منهم الى تلك الدائرة . فلم تمشد اوربا بالسكان حشداً وسع دائرة الرزق فيها الى النهاية فربما لم يجد كولومبوس سبيلاً لاكتشاف اميركا . ولو ان تلك الدائرة لم تنسج أيضاً نهاية الاتساع بعد اكتشاف اميركا لبقيت اميركا تقرأ الى ان تبلغ دائرة الرزق الاوربية نهايتها من الاتساع فيندفع السكان الى اميركا . وذلك لان الناس لا يفتشون شاق المهاجرة ولا يركبون متون المخاطرة الا حينها لا يعودون يطبقون ضغط تلك الدائرة . كذلك اهل مصر لا يزعجون الى السودان او الى بلاد اخرى ما لم يعصروا في مصر عصراً

﴿ الانسان بين ضغط الزحام وضغط الدائرة ﴾ - متى كان الناس المزدحمون في دائرة الرزق يدمرون بعضهم بعضاً الى محيط الدائرة نرى اقوام آتت في مركز الدائرة واضطهدت بحمل ضغط الزحام من ورائه وضغط محيط الدائرة من امامه فان لم يجد مهرباً من الدائرة هلك فيها اذا عجز الفرد عن ان يكون سيداً اضطراً ان يكون مسوداً . وان قصر عن ان يكون مالكاً كان عاملاً . وان لم يكن له ان يكون زارعاً كان اجيراً زارع . وان لم يستطع تحصيل الجنيه اضطران يكتبني بالريال او بالقرش . وان ضاقت في وجهه سبل الرزق ولم يستطع ان يبتاع او يسرق آة . وكل والأهلك او تزح ان استطاع

فالانسان القوي يدفع من امامه الانسان الضعيف . وهذا يدفع من امامه الحيوان . والحيوان يدفع من امامه الطبيعة . وبالتالي بين الانسان والطبيعة فقط . فالطبيعة بما فيها هي الحد الاخير للانسان . فمادام في الطبيعة رزق فالانسان يتعدى الى ان يقول كل ما يمكن من رزق الطبيعة الى ناس

﴿ الانسان والطبيعة ﴾ - الانسان ابن الطبيعة اي هو جزء منها فهو مؤلف من مادتها وقوتها . تتكون منها ويعود اليها . واذا كانت المادة والقوة لا تلبان الفناء بل تتحولان من صورة الى صورة فاذا جاء الانسان الى الطبيعة فلا يكون قد اتى اليها بشيء ليس فيها . واذا ذهب منها فلا يكون قد اقتصا شيئاً مما فيها

الانسان يعيش على الحيوانات والنبات والحيوان يعيش على النبات وبعضه على بعض

والنبات يعيش على أنكربون والهيدروجين والأكسجين واليتروجين وبعض الاملاح ارضية فالانسان مركب من هذه العناصر - فاذا تحول الجانب الاعظم من هذه العناصر ( او الجانب الذي يمكن تحوّلها ) الى ناس بلغ عدد الناس اخذ النهائي واستحالت الزيادة طبعاً فاذا لا يتعدي عدد السكان حينئذ يستثم الناس زرع الارض واستغلالها كلها ما دام في الطبيعة قوة تحت سيطرة الانسان ومادة كربوهيدراتية يمكنه تحويلها بفعل تلك القوة الى اجسام انسانية

وقد اخترع الانسان الفطار البخاري والاولوتومويل فاستغنى بهما عن بعض دواب النقل وسبغت عنها جملة - وهذه الحيوانات تعيش من غلة الارض مع الانسان فاذا تلاشت ( او قل تولدتها ) بيت الحبوب والبقول التي تأكلها طعاماً له - فهذه وسيلة طبيعية لزيادة عدد السكان

وقد استخراج الانسان الفحم الحجري من الارض واحرقه لتوليد قوة يستخدمها في اعماله - ولما احترق تحول الى الجامض الكربونيك فكان غذاء للنبات والنبات غذاء للانسان والحيوان والحيوان ينزدي الانسان - وهذه وسيلة اخرى لزيادة عدد السكان والوحوش الضارية كانت تأكل الحيوانات آكلة النبات وكانت الطبيعة ملائمة من حيوانات يسطو بعضها على بعض وينازع بعضها بعضاً الرزق فلما جاء الانسان جعل ينازعها كلها ارزاقها حتى انمخت الحيوانات الضارية من البلاد العامرة - وبالطبع تحولت مواد الطبيعة عن طريق البقول والحبوب والخرفان والفراخ الى ناس واذا تمادينا في استعلاء هذا التحول وجدنا ان المهور تحول بفعل الانسان الى ناس وغذاء للناس اي لا يبقى اخيراً الا الانسان والطبيعة تحت سلطة الانسان ووجدنا ايضاً ان غلة الارض كما تبرزها الطبيعة مستقلة عن عمل الانسان ليست المصدر الوحيد للارزاق بل هناك مصادر اخرى نجعلها في ما يأتي : -

اولاً - انقراض جانب كبير من الاحياء التي كان الانسان ينازعها الرزق وهي : ١ - الحيوانات التي لا قائدة منها للانسان وكانت قبل الانسان تملأ الممرور ولا تزال في مجاهل افرقيا تربو على ناسها : ٢ - النباتات التي لا ينزدي منها الانسان ولا تنبته لئلا واه او لكائه او لا لزوم لها لوقيدو فقد اقتلها وزرع بدلاها نباتات تنبته

ثانياً - استخراج الانسان مواداً من الارض كالفحم الحجري والبتروك والنفصات والفترات ( سماء للتربة ) تحول الى غذاء

ثالثاً استخراج مواد اخرى معدنية وغير معدنية كالحديد والنحاس والنفط والرفث -  
كل هذه يستخدمها الانسان نراحته . وراحته توفر مادته التي لولا ازراحة والمناخ لكانت  
تذهب عاجلاً في السب والعمل الشاق وتوفر قوته التي لولا للمأوى وانكسار لثندت  
عاجلاً بالبرد

وإذا كان الانسان الى الآن لم يستفد الفائدة اتمامه من هذه المصادر الطبيعية فالتدب  
ذنبه لانه لم يستقر على النظام الاجتماعي القوي الذي يقدره على الاستفادة من هذه المنافع  
رابعاً استيلاء الانسان على قوات الطبيعة كالتيار والكهرباء وانحدار المياه وحركة  
الرياح الى غير ذلك من القوات التي اغتنته عن الحيوانات المستعملة للنقل والجر التي كانت  
تنزعه الرزق

﴿ اخلاصة ﴾ - ترى من كل ما تقدم ان دائرة الارزاق واسعة جداً ومرنة جداً  
تحتمل الاتساع كثيراً . والانسان لم يملأها حتى الآن ومعنى مملأها يستطيع ان يوسعها  
كثيراً . وإذا كان اتساعها يشدد ضغطها عليه فهو قادر ان يقاوم هذا الضغط بقوة الطبيعة  
نفسها التي يستخدمها لاغراض كثيرة . فاذا كانت اوريا قد ازدحمت بالسكان ولم تعد  
تحتمل مزيداً فاميركا لم تزل واسعة وتحتمل عشرة اضعاف سكانها . واسيا كذلك وافريقيا  
لم تزل خالية تقريباً . فالتاس لا يزالون قليلين على دنيام

وهنا لا بد ان تلوح للخطر هذه الاسئلة :-

١ - لقد مرّ على نشوء الانسان الوف من القرون فلو كانت قاعدة ملثوس صحيحة لوجب  
ان تغطي الارض سكاناً منذ الوف من القرون . فلماذا لم يزل جانب كبير من البيضة خلوّاً  
من السكان او يحتمل اضعاف سكانه

٢ - اذا كانت الارض لم تزل رحبية لاهلها فما الذي يضطر الناس الى الازدحام ضمن  
دوائر الضيقة واحتمال ضغطها . ولماذا لا يشقونها الى دوائر اوسع منها وارحب

٣ - اذا كانت دائرة الارزاق واسعة فما السر في ان السواد الاعظم من الناس  
يعانون الشقاء والفقر

٤ - اذا كانت دائرة الارزاق اوسع جداً من ان يملأها الناس فما الذي اوقف عدد  
السكان عند الحد الحالي

هذه اسئلة جدية بالنظر . وسنعود الى البحث فيها في فرصة اخرى

تقولا الحداد